نقد تاريخ التمدن الاسلامي

﴿ بقلم الشيخ شبلي النعماني ﴾

٥

وذكر المؤلف عقيب ذلك وهب بن منبه وانه قرأ من كتب الله ٧٢ كتابا ثم قال « فكان للعرب ثقة كبرى فيه » وقال بعد ذلك فكانت كتب التفسير في القرون الاولى محشوة بالاخبار وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى »

فانظر كيف يناقض المؤلف نفسه ! فقال:

« فنشأ في اعتقادهم انه لا ينبغي ان يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن ـ فرسخ في الاذهان انه لا ينبغي ان ينظر في كتاب غير القرآن ـ فتوطدت العزائم على الاكتفاء به (أي القرآن) عن كل كتاب سواه ومحو ما كان قبله من كتب العلم »

ويقول الآن : ان كتب التفسير في القرون الاولى محشوة بالاخبار ..... مما نقل اليها من الاديان الاخرى وانه كان للعرب ثقة كبرى في وهب بن منبه وان كتب التفسير امتلأت من منقولات أهل الكتاب » فلو كان أهل القرون الاول يبغضون ماسوى القرآن ويمحون ما كان قبله من العلم كما يدعيه المؤلف فمن روى الاسرائيليات وأقاصيص التلمود والتوراة وحشاها في التفسير ؟ ولما كانت المسألة موضع زيادة تفصيل نزيدك توضيحاً وتفصيلا

كان لعدة من الصحابة وكبراء التابعين عناية كبرى بالتوراة وغيرها من الكتب السماوية فمنهم ابو هريرة الذي كان ملازما للنبي عليه السلام منقطعا الى الرواية ـ لم يدانه احد في كثرة الرواية ـ كان مشغوفا بقراءة التوراة ودرسها، قال العلامة الذهبي في طبقات الحفاظ في ترجمته « عن ابي رافع عن ابي هريرة انه لقي كعبا ـ وهو حبر لليهود ـ فجعل يحدثه ويسأله فقال كعب : ما رأيت احداً لم يقرأ التوراة اعلم بما فيها من ابي هريرة »

ومنهم عبدالله بن عمرو بن العاص احد من هاجر قبل الفتح ، قال الذهبي في

طبقات الحفاظ « كان من ايام النبي صواما قواما تاليا لكتاب الله طلابة للعلم كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم علما كثيراً وكان اصاب جملة من كتب اهل الكتاب وأدمن النظر فيها ورأى فيها عجائب »

ومنهم عبدالله بن سلام حليف الانصار اسلم وقت مقدم النبي وفيه ورد قوله تعالى « ومن عنده علم الكتاب » قال الذهبي بعد ذكر فضائله وكونه عالم أهل الكتاب رواية بالاسناد يرفعه الى عبد الله بن سلام انه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اني قرأت القرآن والتوراة فقال اقرأ هذا ليلة وهذا ليلة ، فهذا ان صح فني الرخصة في تكرير التوراة وتدبرها ،

ومنهم كعب الاحبار كان من كبار أهل الكتاب ، اسلم في زمن ابي بكر ، قال الذهبي « قدم من اليمن في دولة امير المؤمنين عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم وأخذ هو من الكتاب والسنة عن اصحابه » فهذا كله تصريح في ان الصحابة أخذوا عنه علم اهل الكتاب ،

ومنهم وهب بن منبه قال الذهبي في ترجمته « وعنده من اهل الكتاب شيء كثير فانه صرف عنايته الى ذلك ، وكان ثقة واسع العلم ينظر بكعب الاحبار في زمانه ، » وعن وهب قال: يقولون عبدالله بن سلام اعلم أهل زمانه وكعب اعلم أهل زمانه »

فهل بعد كل هذا يصح قول المؤلف ، ان الصحابة ومن يليهم كانوا يقولون انه لا ينبغي أن يقرأ كتاب غير القرآن ومحوا ما كان قبلهم من العلم ؟ عياذاً بالله ،

قال المؤلف « ثانياً جاء في تاريخ مختصر الدول لابي الفرج — ثم نقل رواية الاحراق برمتها واطال في اثبات ان ابا الفرج ليس بأول من روى هذه الرواية بل ذكرها عبد اللطيف البغدادي عرضا في ذكره عمود السواري وذكرها القفطي في تاريخ الحكماء »

لا تنازع المؤلف في ان أبا الفرج مسبوق في ذكر هذه الرواية بالقفطي والبغدادي ولكن ماذا ينفعه ذلك ؟ فان البغدادي وهو أقدمهما من اهل القرن السادس للهجرة وذكر الرواية من غير اسناد ومن غير احالة على كتاب

تعود المؤلف من صباه قبول مختلقات أهل الكتاب وأوهامهم فسبب ذلك انه يزن التاريخ الاسلامي بميزان غير ميزاننا ولذلك يصغي الى كل صوت ويستمع لكل قائل لا يعرف ان هذا الفن له أصول ومباد وقواعد وما لم تكن الرواية مطابقة لهذه الاصول اليقينية لا يلتفت اليها أصلا منها ان الناقل للرواية لابد ان يكون شهد الواقعة فان لم يشهد فليبين سند الرواية ومصدرها حتى تتصل الرواية الى من شهدها بنفسه

ومنها ان يكون رجال السند معروفين بصدقهم وديانتهم ، ومنها ان لا تكون الرواية تخالف الدراية ومجاري الاحوال ، ولذلك اهتم مؤرخو الاسلام قبل كل شيء بضبط اسماء الرجال والبحث عن سيرهم وأحوالهم وديانتهم وعلمهم من الصدق فدونوا كتب اسماء الرجال وكابدوا في ذلك محنة يضيق عنها النطاق البشري فعملوا كتبا غير محصورة منها الكامل لابن عدي والثقاة لابن حبان وتهذيب الكمال للمزي وتهذيب التهذيب لابن حجر وطبقات الصحابة لابن سعد ولابن ماكولا وابن عبد البر ولابن الاثير ولابن حجر وتهذيب الاسماء للنووي وميزان الاعتدال للذهبي ولسان الميزان لابن حجر

ونجد كتب القدماء من مؤرخي الاسلام كلها أو أكثرها كتاريخ البخاري وسيرة ابن اسحاق وتاريخ الطبري وابن قتيبة وغيره مسلسلة الاسناد مبينة الاسماء ليمكن نقد الرواية ومعرفة جيدها من زيفها

فأول شيء يهمنا في هذا البحث ان نرى : هل ذكر القفطي والبغدادي هذه الرواية مسندة وذكرا مصدر الرواية واسماء رواتها أم لا ؟

وأنت تعلم أن البغدادي والقفطي من رجال القرن السادس والسابع فأي عبرة برواية تتعلق بالقرن الاول يذكرانها من غير سند ولا رواية ولا احالة على كتاب ؟

أما كتب القدماء الموثوق بها فليس لهذه الرواية فيها أثر ولا عين ، هذا تاريخ الطبري واليعقوبي والمعارف لابن قتيبة والاخبار الطوال للدينوري وفتوح البلدان للبلاذري والتاريخ الصغير للبخاري وثقاة ابن حبان والطبقات لابن سعد قد تصفحناها وكررنا النظر فيها ومع ان فتح الاسكندرية مذكور فيها بقضها وقضيضها فليس لطريق الخزانة فيها ذكر

وعلاوة على ذلك فان في فتح مصر كتبا مختصة بذلك مثل خطط مصر للكندي وكشف الممالك لابن شاهين وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفي وتاريخ مصر لابن بركات النحوي وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الله وغيرها مما ذكرها صاحب كشف الظنون ، والمقريزي جمع وأوعى كل ذلك ولم يترك رواية ولا خبراً يتعلق بعصر الا وذكره عند تفصيل الفتح ولم يذكر هذه الواقعة عند ذكر فتح الاسكندرية

قال المؤلف

« وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب والغالب انهم

ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو نقل لذلك سبباً آخر الخ » (الجزء الثالث صفحة ٤٤ و ٤٥)

لا يستبعد مثل هذا الكلام من مثل المؤلف ! وكيف يقدر ديانة مؤرخي الاسلام وشدتهم في تحري الصدق ونزاهتهم عن التغيير والتحريف وبراءة ساحتهم عن الحذف والاسقاط ، من صارت غريزته تعمد الكذب والتحريف والخيانة والمحو والاثبات ؟

قال المؤلف « ثالثاً ورد في اماكن كثيرة من تواريخ المسلمين ، خبر احراق مكاتب فارس وغيرها على الاجمال وقد لخصها صاحب كشف الظنون » الخ (الجزء الثالث صفحة ٤٥)

انظر الى هذا الكذب الفاحش والخديعة الظاهرة فان صاحب الكشف ذكر ما ذكر من عند نفسه من غير نقل رواية ولا استناد ولا استشهاد بكتاب ولا ذكر ناقل او مؤرخ — وصاحبنا يقول : انه ورد في اماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق المكاتب وقد لخصها صاحب كشف الظنون ، فاين الاماكن الكثيرة واين التلخيص ؟ !

اما قول صاحب كشف الظنون فقد ورد عرضا وتطفلا وكذلك قول ابن خلدون . وامثال هذه المواقع لا تحتاج الى كبير اعتناء وزيادة احتياط ولذلك لما ذكر ابن خلدون فتح مصر والاسكندرية وهو بلنظة لذكر هذه الواقعة لم يتفوه بهذه الرواية اصلا ثم ان ابن خلدون وصاحب كشف الظنون من رجال القرن الثامن وبعده فلم يذكرا من اين أخذا هذه الرواية لا يعبأ بها ولا يلتفت اليها ،

قال المؤلف « رابعاً ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور ..... كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية » الخ (الجزء الثالث صفحة ٤٥)

بالعجب ! عبد الله ابن طاهر من قواد المأمون ومن رجال الادب وهذا العصر يمتاز بكونه عصر العلم والمعارف وقد كانت للدولة ورجال حاشيتها وغيرهم عناية كبرى بكتب الاوائل وكانوا يستجلبون الكتب من فارس وبلاد الروم وغيرها — ونجد تفاصيل ذلك في فهرست بن النديم وطبقات الاطباء واخبار الحكماء وغيرها ، فكيف يعول على هذه الرواية التي ما ذكرها احد من ثقاة المؤرخين وانما استند المؤلف « براون المعلم الانكليزي » وهو نقلها من تذكرة «دولت شاه» وهو كتاب جامع

لكل غث وسمين ، ولو صح نقلها لكانت على سبيل الندرة والشذوذ ، فهل يصح قول المؤلف « ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور » ؟

قال المؤلف « خامساً ، ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يهدّون هدم المعابد القديمة واحراق كتب اصحابها من قبيل السعي في تأييد الاديان الجديدة » (ثم ذكر في تأييد ذلك عمل امبراطرة الروم واحراق كتب المتزلة) ج ٣ ص ٤٦

نعم ولكن الراشدين لا يقاسون بغيرهم ، ثم ان المسألة ليست قياسية فما لم تثبت بالرواية لا ينفع مجرد القياس ،

قال المؤلف « سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من أئمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقاء انفسهم » (ثم ذكر بعض الحوادث في تأييد ذلك) ج ٣ ص ٤٦

عجباً لمثل هذا الاستدلال ! فان المرء يجوز له ان يفعل بملكه ما يشاء واي حجة في ذلك لاحراق كتب اقوام اخر ؟

ان هذه القياسات الواهية لا تغني شيئاً ولكن لو اردنا ان نستقصي في ذلك البحث بالقياس والامارات فعلينا ان ننظر ما كان صنيع الخلفاء الراشدين بآثار اهل الذمة ومعابدهم وكنائسهم وامتعتهم وخزائنهم ، ان الاصل في ذلك عهد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه لاهل نجران وقد ذكره القاضي ابو يوسف في كتاب الخراج بحروفه

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على اموالهم وانفسهم وارضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت ايديهم من قليل أو كثير ، (كتاب الخراج طبع مصر صفحة ٤١)

فكان هذا العهد هو العمدة للصحابة عضوا عليه بالنواجذ ونجد في كل عهود الخلفاء الراشدين كعهد نجران ومصر والشام والجزيرة ان هذا الاصل أي ذمة الله ورسوله على أرضهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير محفوظ باق على حالته الاصلية وعهد مصر هو هذا

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم وأموالهم وصلبهم ومدهم وعددهم »

وذكر في معجم البلدان رواية بزيادة « ان لهم أرضهم واموالهم لا يتعرضون في شيء منها » وانت تعلم ما لعمر الفاروق من العناية والشدة في وفاء العهد باهل الذمة وغيرهم ومع عهده بانهم لا يتعرضون في شيء من أموالهم وكل ما تحت ايديهم

كيف كان يعرض لخزانة كتبهم التي هي من انفس ذخائرهم واغلاها ؟

اعلم ان مسألة احراق خزانة الاسكندرية موضوع مهم عند اهل أوربة وقد أطال البحث فيه اثباتاً ونفياً ومن ألم بهذا البحث اجمالا وتفصيلا المعلم (وايت) والمعلم (دماسي) الفرنسي في ترجمة كتاب الافادة والاعتبار و(واشنكتن ادونك) و(دريبر) الاميركاني صاحب كتاب الجدال بين العلم والدين وكرجين وسيديو الفاضل الشهير الفرنسي في تاريخ الاسلام والمعلم رينان الفيلسوف الفرنسي في خطبته الاسلام والمعلم و(اوركلين)، وللمعلم (كريل) الالماني رسالة مستقلة في هذا البحث قدمها في المؤتمر الشرقي الذي انعقد سنة ١٨٢٨ م أورد فيها كل ما كتب الباحثون في هذا البحث نفياً أو اثباتاً وقد طالعت كل هذه المباحثات والمقالات وعملت رسالة في اللسان الاردي وترجمت الى الانكليزية ثم الى العربية ترجمها أحد اهل الشام وطبع شطر منها في جريدة ثمرات الفنون . ومجلة المقتبس

والحاصل ان محققي اهل أوربة قضوا بان الواقعة غير ثابتة اصلا منهم (جبين) المؤرخ الشهير الانكليزي ودريبر الاميركاني وسيديو الفرنسي وكريل الالماني والمعلم رينان الفرنسي . عمدتهم في انكار ذلك امران الاول ان الواقعة ليس لها عين ولا أثر في كتب التاريخ الموثوق بها كالطبري وابن الاثير والبلاذري وغيرها مما مر ذكرها وأول من ذكرها عبد اللطيف البغدادي والقفطي وهما من رجال القرن السادس والسابع ولم يذكرا مصدراً للرواية ولا سندا . والثاني ان الخزانة كانت ضاعت قبل الاسلام أثبتوا ذلك بدلائل لا يمكن انكارها

قال المؤلف .

« قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب . . . . ولذلك منعوهم من تدوين الكتب . . . . وكان هذا الاعتقاد فاشياً في الصحابة والتابعين وتمسك به جماعة من كبارهم وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم ابوا واستكفوا » الخ (الجزء الثالث صفحة ٥٠)

أطال المؤلف ونقل أقوالا عديدة في اثبات ان الخلفاء الراشدين والصحابة كانوا يمنعون الناس عن الكتابة والتأليف ونحن لا ننكر ان هذا كان مذهباً لبعض الصحابة والتابعين ولكن الدين رخصوا في ذلك وأمروا بالكتابة والتدوين اكثرهم عدداً وأرجحهم ميزاناً وأوسعهم نفوذاً وقد عقد المحدث المشهور القاضي ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم (انظر صفحة ٣٦ طبع مصر) باباً في اثبات

ذلك ونحن ننقل شطراً منه قال «وعن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيدوا العلم بالكتاب وعن عبد الملك بن صفيان عن عمه انه سمع عمر بن الخطاب يقول قيدوا العلم بالكتاب وعن معن قال اخرج الى عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود كتاباً وحلف لي انه خط أبيه بيده وعن أبي بكر قال سمعت الضحاك يقول اذا سمعت شيئاً فاكتبه ولو في حائط وعن سعيد بن جبير انه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فاذا نزل نسخه وعن ابي قلابة قال الكتاب أحب الينا من النسيان وعن أبي مليح قال يعيبون علينا الكتاب وقد قال الله «علمها عند ربي في كتاب» وعن عطاء عن عبد الله بن عمرو قلت يا رسول الله أأقيد العلم؟ قال «قيد العلم» قال عطاء قلت وما تقييد العلم؟ قال الكتاب وعن عبد العزيز بن محمد الداوردي قال أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب ، وعن عبد الرحمن بن ابي الزناد عن أبيه قال كنا نكتب الحلال والحرام وكان بن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج اليه علمت أنه أعلم الناس ، وعن سوادة بن حيان قال سمعت معاوية بن قرة يقول من لم يكتب العلم فلا تعدوه عالماً ، وعن محمد بن علي قال سمعت خالد بن خداش البغدادي قال ودعت مالك بن انس فقلت : يا أبا عبد الله اوصني قال : عليك بتقوى الله في السر والعلانية والنصح لكل مسلم وكتابة العلم من عند اهله ، وعن الحسن أنه كان لا يرى بكتاب العلم بأساً وقد كان أملى التفسير فكتب وعن الاعمش قال قال الحسن ان لنا كتباً نتعاهدها وقال الخليل بن احمد : اجعل ما تكتب بيت مال وما في صدرك للنفقة ، وعن هام بن عروة عن ابيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة وكان يقول: وددت لو ان عندي كتبي باهلي ومالي ، وعن سليمان بن موسى قال: يجلس الى العالم ثلاثة رجل يأخذ كل ما سمع فذلك حاطب ليل ورجل لا يكتب ويستمع فذلك يقال له جليس العالم ، ورجل ينتهي وهو خيرهم وهذا هو العالم ، وعن اسحاق بن منصور قال قلت لاحمد بن حنبل : من كره كتابة العلم ؟ قال كرهه قوم ورخص فيه آخرون قلت له : لو لم يكتب العلم لذهب قال: نعم لولا كتابة العلم أي شيء كنا نحن؟ قال اسحاق وسألت اسحاق بن راهويه فقال كما قال احمد سواء ، وعن حاتم الفاخري - وكان ثقة - قال سمعت سفيان الثوري يقول : اني أحب ان اكتب الحديث على ثلاثة أوجه: حديث اكتبه أريد ان اتخذه ديناً ، وحديث رجل اكتبه فاوقفه لا اطرحه ولا أدين به ، وحديث رجل ضعيف أحب أن اعرفه ولا أعمل به . وقال الاوزاعي : تعلم ما لا يؤخذ به كما تتعلم ما يؤخذ به وعن سعد بن ابراهيم

قال : أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً فبعث الى كل أرض له عليها سلطان دفتراً، وعن أبي زرعة قال سمعت احمد بن حنبل ويحيى بن معين يقولان: كل من لا يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط وعن الزهري قال كنا نكره كتاب العلم حتى اكرهنا عليه هؤلاء الامراء فرأينا ان لا نمنعه أحداً من المسلمين، وذكر المبرد قال قال الخليل بن احمد ما سمعت شيئاً الا كتبته ولا كتبته الا حفظته ولا حفظته الا نفعني

﴿ الضغط على أهل الذمة ﴾

أدعى المؤلف ان عمر بن الخطاب كتب عهداً لنصارى الشام وذكر نصه منقولا عن سراج الملوك للطرطوشي واعترف بان فيه ضغطاً على النصارى ثم اعتذر لعمر بان نصارى الشام كانوا يميلون الى قيصر الروم وكانوا من بطانته يتجسسون له فلذلك احتيج الى الشدة بهم والتضييق عليهم

كل من له أدنى مسكة في التاريخ يعرف ان الطرطوشي ليس من رجال التاريخ وكتابه كتاب أدب وسياسة لا كتاب تاريخ وهو من رجال القرن السادس وانما الاول في هذا البحث على المصادر القديمة الموثوق بها كتاريخ الطبري والبلاذري واليعقوبي وابن الاثير وغيرهم، وهذا ما كان يخفى على المؤلف ولكن لاجل هوى نفسه اعرض عن كل هذه وتشبث برواية واهية تخالف الروايات الصحيحة المذكورة باسنادها ورجالها ، قال القاضي ابو يوسف وهو مع كونه من رجال الفقه عارف بالمغازي والسير بعد ما نقل عهد نصارى الشام وليس فيه أدنى ضغط عليهم ولا شدة بهم

« فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة رسلهم ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون ان يصنعوا فاتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بان الروم قد جمعوا جمعاً . فكتب أبو عبيدة الى كل وال عن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي من الجزية والخراج. وكتب اليهم ان يقولوا لهم : انما رددنا عليكم أموالكم لانه قد بلغنا انه جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا أن تمنعكم وانا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم

لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً (كتاب الخراج طبع مصر صفحة ٨ و ٨١)

فانظر الى هذا العدل الذي عجز البشر عن اتيان مثله واعتراف أهل الذمة بذلك! والى قول المؤلف ان عمر ضغط عليهم وانما ضغط لانهم كانوا من جواسيس الروم!

﴿ تاريخ العلوم الاسلامية ﴾

اما تاريخ العلوم الاسلامية والتقريظ عليها فقد فقدنا اليوم في ملتنا من يقوم بهذا العبء فكيف برجل دخيل نبتا بضاعته مزجاة قليل المعرفة من علومنا الا اسماء تلقاها من ظواهر الكتب وافواه العامة؟ فاذا تكلم عن شيء منها خبط وخلط؟ وهاك امثلة من ذلك قال « وكان المسلمون غير العرب هناك أكثرهم الفرس وهم أهل تمدن وعلم فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث تخالفوا بذلك أهل المدينة لانهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد » (الجزء الثالث ص ٧٩) ظن الرجل ان استخدام القياس والرأي من مبتدعات الفرس مع ان أول من سمي بهذا الاسم هو ربيعة الرأي صرح بذلك السمعاني في الانساب وهو من أول أهل المدينة وعن اخذ عنهم الامام مالك ، وان مالكا والشافعي وابا يوسف والامام احمد رضي الله عنهم كلهم يستعملون القياس مع كونهم من العرب أرومة وموطناً واداة وان الفارق بين اصحاب الرأي والحديث ليس استعمال القياس - وفصل القضية في ذلك تجده في كتاب حجة الله البالغة لشاه ولي الله الدهلوي من متأخري حكماء الاسلام - ثم قال المؤلف « فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها وخصوصاً مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذ أبا حنيفة النعمان في الكوفة فاستقدمه المنصور الى بغداد واكرمه وعزز مذهبه » الجزء الثالث ص ٧١

ظلمات بعضها فوق بعض ! ! ما كان أبو حنيفة ارفع مكانة عند المنصور من مالك فان ابا حنيفة كان هواه مع ابراهيم الخارج على المنصور وكان افتى بنصرة ابراهيم ولذلك أراد المنصور المكيدة به فاستدعاه وعرض عليه القضاء ولما لم يرض به سجنه وأمر بضربه حتى مات في السجن ، أما ماقال من تصغير أمر الامام مالك فخالف الروايات الصحيحة الثابتة. قال القاضي ابن عبد البر في كتاب جامع العلم (صفحة ٦٧) عن محمد بن عمر قال سمعت مالك بن أنس يقول لما حج أبو

جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحدثته وسألني فاجبته فقال : اني عزمت ان آمر بكتبك هذه التي وضعتها (يعني الموطأ) فينسخ نسخاً ثم أبعث الى كل مصر من امصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدوها الى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فاني رأيت أن أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم الخ

قال المؤلف « وكان ابو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به » (الجزء الثالث صفحة ٧١ مستنداً باين خلكان) نعوذ بالله من هذا الكذب الظاهر والمين الفاحش! استشهد المؤلف في هذه الواقعة باين خلكان والحال ان ابن خلكان ذكر في تاريخه في ترجمة أبي حنيفة بعد ذكر محاسنه ان الخطيب البغدادي اطال في مثالب أبي حنيفة ثم أنكر عليه ذلك وقال ما كان يعاب أبو حنيفة الا بقلة العربية فانه قال « ولو رماه بالمقاييس » ثم اعتذر له بنوع من العذر وليس فيه أقل شيء يومئ الى ان أبا حنيفة كان لا يحب العرب والعربية ثم ان أبا حنيفة كان ناقماً على العباسية الحامين للفرس وكان من شيعة زيد ابن الامام زين العابدين وكان تلميذاً لحماد وهو تلميذ لابراهيم النخعي وكلهم عرب ثم أصحابه الملازمون له والناشرون لفقهه والقائمون بدعوته أي أبا يوسف ومحمداً وزفر كلهم عرب ، أما لحن ابي حنيفة . فمعلوم انه عجمي وكم من الاعجام الذين هم رءوس الادب ووجوه العربية كحماد الرواية وغيره كانوا يلحنون وكان هذا طبيعتهم وعزيزتهم »

فمن كان هذا مبلغه من العلم وحظه من النظر هل يصلح لسلوك هذا الطريق الوعر والخوض في غمار هذا البحث الدقيق الذي يحتاج الى التضلع في العلوم الاسلامية والتوسع فيها مع سعة النظر ووفرة المواد واصابة الراي وشدة الفحص وافراغ الجهد وتكميل الادوات ثم أن الرجل ههنا هو الرجل الذي عهدناه قبل ذلك في سوء طويته وكامن حقده ومحامله على العرب واعتياده التحريف وتمرنه بسوء التأول وتلبيس الكلام وهاك امثلة من هذه ،

قال (تحت عنوان الفقه) « فلما افضى الامر الى بني العباس وأراد المنصور تصغير العرب واعظام أمر الفرس لانهم أنصارهم واهل دولتهم كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجاً للناس

وقطع الميرة عن الحرمين وفقيه المدينة يومئذ الامام مالك الشهير فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فافتى لهم بخلع بيعته (الجزء الثالث صفحة ٧٩)

وهذا كله كذب واختلاق والمنصور أبعد محلا وأبرأ ساحة من ان يبغي بناء أو غاماً للكعبة ـ وقد سبق لنا الكلام فيه فاما قطع الميرة عن المدينة فلم يكن الا حجراً ـ على محمد وتضييقاً عليه لما قام بالخلافة وقد صرح بذلك المقريزي (الجزء الثاني صفحة ١٤٣) فقال : وذكر البلاذري ان ابا جعفر المنصور لما ورد عليه قيام محمد ابن عبدالله قال: تكتب الساعة الى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين ـ والامام مالك كان هواه مع محمد يحرض الناس على موازرته وافتى بخلع بيعة المنصور » فانظر كيف قلب المؤلف الحكاية وصرفها عن وجهها ! فخروج محمد وافتاء الامام مالك متقدمان على قطع الميرة عن المدينة وخروج محمد هو السبب في قطع الميرة والمؤلف يقول : ان قطع الميرة انما كان إرغاماً للحرمين وان الامام مالكا أفتى لذلك بخلع بيعته ـ

قال المؤلف بعد ما ذكر رغبة بني أمية في الشعر وتنشيطهم للناس تحت عنوان (الشعر وبنوامية) « وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الادب وتنشيطاً لاهله لان الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة ولكن الاغلب انهم كانوا يفعلونه للاستعانة بألسنة الشعراء على مقاومة اهل البيت» الخ (الجزء الثالث صفحة ١٠٢) فانظر إلى هذا التحامل المفرط والحيف الشديد ! فانه لما لم يجد سبيلا الى انكار ما لبني أمية من الايادي في ترويج سوق الادب ورفع منار الشعر والاخذ بناصر علماء العربية واعطاء الصلات المتكاثرة للشعراء احتال لدفعه بإبداء احتمال أنهم كانوا مدفوعين الى ذلك سياسة ،

قال « وقد تقدم في كلامنا عن الفقه ان المنصور أخذ بناصر أصحاب الرأي والقياس واستقدم أبا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية وظل الميل الى القياس متواصلا في بني العباس والاعتزال اقرب المذاهب الى اصحاب الرأي » الخ (الجزء الثالث صفحة ٢٤٠) انظر الى ما بلغ به حال المؤلف في جهله بالمعارف الاسلامية حتى أنه يقرن بين الاعتزال والرأي ويعدهما من جنس واحد ولم يدر المسكين ان لا رابط بينهما فان الاعتزال احد المذاهب الكلامية والرأي والقياس احد أصول

الفقه ومعظم اصحاب الرأي والقياس بل كلهم الا الشاذ النادر منهم كابي حنيفة ومحمد وابي يوسف وزفر وابي لولو والطحاوي والخصاف وابي بكر الرازي والدبوسي وغيرهم كانوا ناقمين على الاعتزال وكانوا يعدون المعتزلة من أهل الاهواء والضلالة

قال « فلما افضت الخلافة الى المأمون أخذ بناصر اشياعه وصرح باقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن اي انه غير منزل » (الجزء الثالث صفحة ١٤١)

وهل يكون كذب اعظم من هذا؟! فان خلق القرآن او قدمه لا مساس له بالتنزيل أو عدمه فان الاختلاف في : هل الكلام صفة حادثة تقوم بالله تعالى ؟ أو هو صفة قديمة ؟ فالمعتزلة قالوا بحدوثه حذرا من تعدد القدماء وأهل السنة وغيرهم قالوا بقدمه لان الحادث لا يقوم بقديم. فاما أن القرآن كلام الله تعالى منزل الى الرسول فهذا لا يختلف فيه اثنان .

قال « واما الفلسفة بحد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر وكان الانتساب اليها مرادفا للانتساب الى التعطيل وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة حتى في ايام المأمون ولذلك سماه بعضهم أمير الكافرين » (الجزء الثالث صفحة ١٧٧)

استشهد المؤلف في هذا القول باليعقوبي ونحن ننقل عبارته حتى تعرف مقدار خديعة المؤلف، قال اليعقوبي «وشخص هرثمة من العراق الى مرو سنة ٢٠١ وقيل انه انصرف بخبر اذن من المأمون فلما دخل على المأمون ... قال من نفرس ولا يمكنني اسمي في محفة ... وكلم المأمون بكلام عليه ودخل معه يحيى بن عاصم بن اسماعيل الحارثي فقال: السلام عليك يا أمير الكافرين . فأخذته السيوف في مجلس المأمون حتى قتل ! فقال هرثمة : قدمت هذه المجوس على اوليائك وانصارك ؟ واتوا محمد بن صالح بن المنصور فقالوا : نحن انصار دولتكم وقد خشينا ان تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس» (اليعقوبي صفحة ٥٤٦ و ٥٤٧) ان المأمون استوزر حسن بن سهل وكان مجوسياً أسلم فتقم العرب على المأمون وقالوا انك قدمت المجوس وقال له يحيى السلام عليك يا أمير الكافرين فهذا كله من السياسة لا مساس له بالفلسفة والاعتزال وابن هرثمة ويحيى بن عاصم الحارثي من اهل الجند ما عرفا الفلسفة ولا سمعا بها ،

قال المؤلف « ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائله فلم يكن احدهم يستنكف من ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ وتعددت مذاهب اصحابها في

القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لانها قصة من القصص والقائلون بذلك النجاردة (الجزء الثالث صفحة ٦١)

انظر الى هذه الحديعة بمدح الاسلام بكونه أقرب الى حرية الفكر ويدس فيه ان بعض الطوائف الاسلامية كانت تنكر ان سورة يوسف من القرآن وهم النجاردة يوهم بذلك ان النجاردة فرقة من الفرق الاسلامية وان انكار بعض سور القرآن كان مذهباً من مذاهب الاسلام مع ان النجاردة وهم حماد نجرد واثنان آخران معروفين بالالحاد والزندقة والخروق من الاسلام ذكرهم ابن خلكان والشهرستاني وغيرهما ،

بشائر عيسى ومحمد (*

﴿ في العهدين العتيق والجديد ﴾

٣

(٥) قال ميخا ٥ : ٢ (أما أنت يا بيت لحم افراتة « وأنت » صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الازل) والذي يفهم من هذه العبارة أن الله قضى بخروجه منذ الازل وهذا لا نزاع فيه . أما اذا كانوا يفهمون منها أن خروج المسيح كان منذ الأزل فهو خطأ لانه باعتبار ناسوته ما خرج منذ الازل باعترافهم و باعتبار لاهوته لا معنى لخروجه فان ذاته هي عين ذات الله على حسب اعتقادهم وذات الابن لم تفارق ذات الله تعالى لا أزلا ولن تفارقه أبدا فانها لا تقبل الانقسام ولا التفرق فكيف إذا يفسرون هذا اللفظ (مخارجه) ؟ ولماذا أتى جمعا لا مفردا ؟ والذي يدلك على صحة تفسيرنا ـ أن المراد خروجه في علم الله وقضائه أزلا ـ قول سفر الرؤيا ١٣ : ٨ كما في الترجمة الانكليزية (في سفر حياة الخروف الذي ذبح منذ تأسيس العالم) والمراد به عندهم صلب المسيح الذي وقع في عهد بيلاطس لا منذ تأسيس العالم و إنما

(*) تابع لما نشر في الجزء الخامس ص ٣٥٢